بالصباح فبالله الا ما اجزت من شاعركم الذي تتطاولون به شاعرا ممن ذكرت لا اعرف لكم اشهر ذكرا واضح
شعرا من ابي العباس الجراوي واولى لكم ان تجحدوا فخره • وتنسوا ذكره • فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم
في قوله من قصيدة يمدح بها خليفة • اذا كان املاك الزمان اراقما • فانك فيهم دايم الدهر ثعبان
فما اقبح ما وقع ثعبان وما اضعف ما جاء دايم الدهر ولقد انشدت احد ظرفاء الاندلس هذا البيت
فقال لا تنكر هذا على مثل الجراوي فسبحان من جعل نسبه ووجهه وشعره تتناسب في الثقالة وان
اردت الافتخار بالفرسان والتفاضل بالشجعان فمن كان قبلنا منهم في مدة المنصور ابن ابي عامر ومدة ملوك
الطوايف اخبارهم مشهوره • واثارهم مذكوره • وكمالك من ابطال عصرنا ما سمعت عن الامير ابي بكر
ابن مردنيش وانه كان يدفع في المواكب وايتهما يمينا ويسارا منشدا • اكر على الكتيبة لا ابالي •
احتفي كان فيها ام سواها • حتى انه دفع يوما في موكب من النصارى فصرع وقتل وظهر منه
ما تحدثت به نفسه فقال الشيخ من خواصه عالم بامور الحرب مشهود به كيف رايت فقال له لو راك
السلطان زاد فيما لك في بيت المال واعلام ستك امن يكون راس جيش يقدم هذا الاقدام ويتعرض
بهلاك نفسه الى هلاككم فقال له دعني فاني لا اموت مرتين واذا مت انا فلا عاش من بعدي والقايد
ابو عبد الله بن قادس الذي اشتهر من شجاعته ومواقعه في النصارى وحسن بلايه ما صير النصارى من
رعبه والافراد بفضله في هذا الشان ان يقول احدهم لفرسه اذا اسقاه فلم يقبل على الماء ما لك اترى
ابن قادس في الماء وهذه مرتبة عظيمة والفضل ما شهدت به الاعداء • ولقد اخبرني من اثق به انه
خرج من عسكر في كتيبة مجردة برسم الغارة على بلاد النصارى فوقع في جمع كبير منهم فجهد جهده في الخلاص منهم
والرجوع الى العسكر فجعل يقاتل مع اصحابه في حالة الفرار الى ان كبا باحدهم جواد فرسه ووقع عنه فناداه سيّ
القائد ... ثم نظر الى فارس من النصارى قد طرف فقال اجر الى هذا النصراني فخذ فرسه وركض نحوه فاسقط
وقال لصاحبه اركب فركب وبجامعه سالما وامثال هذا كثير • وانما جيت بحصاة من ثبير • واما كرم النفس
وشمايل الرياسة فانا احكي لك حكاية تتعجب منها وهي مما جرى في عصرنا وذلك ان ابا بكر بن زهر كانت بينه
وبين الحافظ ابي بكر بن الجد عداوة مفرطة للاشتراك في العلم والرياسة وكثرة المال والبلاد فاجرى
ابن زهر يوما ذكره في جماعة من اصحابه وقال لقد اذاني هذا الرجل اشد اذاية ولم يقصر في القول فيّ عند امير المؤمنين
وعند خواص الناس وعامتهم فقال له احد عوامهم اني اذكر لك عليه عقدا فيه مخاصمة في موضع مما يعز عليه من
مواضعه ومتى خاصمته في ذلك بلغت منه في النكاية اشد مبلغ فخرج ابن زهر واظهر الغضب الشديد والانكار
لذلك وقال لوكيله اشلى بجازي على العداوة بما يجازي به السفل والاوباش واني اجعل ابن الجد في حل من موضع
الخصام وامر بان يحمل له العقد ثم قال واني والله ما اروم بذلك اصالحه فان عداوته من حسد وانا اسال الله
ان يديمها لانها مقترنة بدوام نعم الله علي وان تعرضت بي الى ذكر البلاد وتفسير محاسنها وما خصها الله به
مما حرمها غيرها فاسمع ما يميت الحسود كمدا • اما اشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء وحسن المباني وتزيين
الخارج والداخل وتمكن التمصر حتى ان العامة تقول لو طلب لبن الطير في اشبيلية وجد ونهرها الاعظم
الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر وفيه يقول ابن ... شق النسيم عليه جيب قميصه
فانساب من شطيه يطلب ثاره • فتضاحكت ورق الحمام بدوحها • هزءا فضم من الحياء ازاره
وزيادته على الانهار كون ضفتيه مطرزة بالمنازه والبساتين والكروم والانشام متصلا ذلك اتصالا
لا يوجد على غيره واخبرني شخص من الاكياس دخل مصر وقد سالته عن نيلها انه لا تتصل بشطيه البساتين
والمنازه اتصالها بنهر اشبيلية وكذلك اخبرني شخص اخر دخل بغداذ وقد سعد هذا الوادي بكونه لا يخلو
من مسرة وان جميع ادوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لا ناه عن ذلك ولا منتقد ما لم يود السكر الى شر وعربدة
وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك فلم يستطيعوا ازالته واهله اخف الناس ارواحا
واطبعهم نوادرا واحملهم للمزاح باقبح ما يكون من السب قد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من
لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا ثقيلا وقد سمعت عن شرف اشبيلية الذي ذكره احد الوشاحين في موشحة
مدح بها المعتضد بن عباد • اشبيليا عروسا • وبعلها عباد • وتاجها الشرف • وسلكها الواد
اي شرف قد حاز ما شاء من الشرف اذ عم اقطار الارض خيره وسعرها يعصر من زيتونه من الزيت حتى بلغ
الاسكندرية وتزيد قراه على غيرها من القرى بانتخاب مبانيها وتهمم سكانها فيها داخلا وخارجا اذ هي من
تبيضها كانها نجوم في سماء الزيتون وقيل لاحد من راى مصر والشام ايهما رايت احسن هذان ام اشبيلية
فقال بعد تفضيل اشبيلية وشرفها غابة بلا اسد • ونهرها نيل بلا تمساح • وقد سمعت عن جبال الرحمة
بخارجها وكثرة ما فيها من التين القوطي والشعري وهذان الصنفان اجمع المتجولون في اقطار الارض ان ليس في
اشبيلية مثلهما وقد سمعت ما بهذه البلد من اصناف ادوات الطرب كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب
والقانون والمونس والكثيرة والفنار والزلامي والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والاخر
رقيقه والبوق وان كان جميع هذا موجودا في غيرها من بلاد الاندلس فانه فيها اكثر واوجد وليس في بر العدوة
من هذا شيء الا ما جلب اليه من الاندلس وحسبهم الدف واقوال واليرا وابو قرون ودبدبة السودان وحماقي
البرابر واما جواريها ومراكبها بحرا وبرا ومطابخها وفواكهها الخضر واليابسة فاصناف اخذت من التفضيل
باوفر نصيب واما مبانيها فقد سمعت من اتقانها واهتمام اصحابها بها كثرة وكون اكثر ديارها لا تخلو من الماء
الجاري والاشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك • واما علماؤها في كل فن رفيع او وضيع

جدا

جدا او هزلا فاكثر من ان يعدوا واشهر من ان يذكروا • واما ما فيها من الشعراء والوشاحين والزجالين فلو اقسموا
على مر الدهور لضاق بهم والكل ينالون خير روسايها ورفدهم وما من جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة
الا وقصدي به العبارة عن فضايل جميع الاندلس فما تخلو بلادها من ذلك ولكن جعلت اشبيلية بل اسجلها
ام قراها • ومركز فخرها وعلاها • اذ هي اكبر مدنها واعظم امصارها • واما قرطبة فكرسي المملكة في القديم ومركز
العلم ومنار التقى ومحل التعظيم والتقديم بها استقرت ملوك الفتح وعظماؤه ثم الملوك المروانية وبها
كان يحيى بن يحيى راوية مالك وعبد الملك بن حبيب وقد سمعت من تعظيم اهلها للشريعة ومنافستهم في
السودد بعلمها وان ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ويرفعون اقدارهم ويصدرون عن ادراكهم وانهم كانوا
لا يقدمون وزيرا ولا مشاورا ما لم يكن عالما حتى ان الحكم المستنصر بما كره له العلماء بعض الحرم قطع
شجرة العنب من الاندلس فقيل له فانها تعصر من سواها فامسك عن ذلك وانهم كانوا لا يقدمون
احدا للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره وتعقد له مجالس المذاكرة ويكون ذا مال في غالب الحال
خوفا من ان يميل به الفقر الى الطمع فيما في ايدي الناس فيبيع به حقوق الدين ولقد اخبرت ان الحكم الربضي
اراد تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة فاختبر ذلك مع يحيى بن يحيى وعبد الملك وغيرهما من
اعلام العلماء فقالوا له هو اهل ولكنه شديد الفقر ومن يكون في هذه الحالة لا نؤمنه على حقوق المسلمين لا سيما
وانت تريد انفاعه واظهوره في الدخول في المواريث والوصايا واشباه ذلك فسكت ولم ير منازعتهم وفي نفسه من
كونهم لم يقبلوا قوله فنظر اليه ولو ابنه عبد الرحمن الذي ولي الملك بعده وعلى وجهه اثر ذلك فقال
ما لك يا مولاي فقال الا ترى لهولاء الذين نقدمهم وننوه عند الناس بمكانهم حتى اذا كلفناهم
ما ليس عليهم فيه شطط بل ما لا يعنيهم ولا هو مما يراهم شيا صدونا وغلقوا ابواب الشفاعة وذكر له
ما كان منهم فقال يا مولاي انت اولى الناس بالانصاف ان هولاء ما قدمتهم ولا نوهت بهم وانما قدمهم
ونوه بهم علمهم او كنت تتخذ قوما جهالا لا تنوضعهم في مواضعهم قال لا قال فانصفهم فيما تعبوا فيه من
العلم لبا لو ابه لذة الدنيا وراحة الاخرة قال صدقت ثم قال واما كونهم لم يقبلوا هذا الرجل لشدة فقره
فالعلاج في ذلك تخصه بما ينبغي لك في الصالحات ذكرا قال وما هو قال تعطيه من مالك قدر ما يلحق به من
الغنا ما يوهله لتلك المنزلة ويزيل عنك هذا الخجل منهم لك وتكون هذه تكرمة ما سبقك اليها احد
فتهلل وجه الحكم وقال اي والي انها والله شنشنة عبشمية • وان الذي قد فينا لصادق ه
وابناء املاك خضارم سادة • صغيرهم عند الانام كبير ه ثم استدعى عبد الملك بن حبيب
وساله عن قدر ما يوهله لتلك المرتبة من الغنا فذكر له عددا فامر له به في الحين ونبه قدره بان اعطاه
من اصطبله مركوبا وكانت هذه اكرومة لا خفاء بعظمها • يعني الزمان وما بنته مخلد ه
ثم انه اذا كان له من الغنا ما يكفيه عن اموال الناس ومن الدين ما يصده عن محارم الله ومن العلم ما لا يجهل به
التصرف في الشريعة اباحوا له الفتوى والشهادة وجعلوا ملازمة لذلك بين الناس القالس والرداد واهل
قرطبة اشد الناس محافظة على العمل باصح الاقوال المالكية حتى انهم كانوا لا يولون حاكما الا بشرط ان لا يعدل
في الحكم عن مذهب ابن القاسم وقال ابن وسادة لما دخل قرطبة الحمد لله قد وافيت قرطبة دار العلوم وكرسي
السلاطين وهي كانت مجمع جيوش الاسلام ومنها نصر الله على عبدة الصليب يقال ان المنصور بن ابي عامر
حين تم له ملك البرين وتوفرت الجيوش والاموال عرض بظاهر قرطبة خيله ورجله وقد جمع من اقطار البلاد
ما ينهض به الى قتال العدو وقد دوخ بلاده فنيف الفرسان على ماية الف والرجالة على ستماية الف وبها
حتى الان من صناديد المسلمين وقوادهم من لا يفتر عن محاربة ولا يمل من مضاربة اسماؤهم باقاصي بلاد النصارى
مشهوره واثارهم فيها ماثوره وقلوبهم على البعد تخوفهم معمورة ويحكى ان العمارة في مباني قرطبة والز
والزاهرة اتصلت الى ان كان يمشي فيها لضوء السرج المتصلة عشرة اميال • واما جامعها الاعظم
فقد سمعت ان ثرياته من نواقيس النصارى وان الزيادة التي زاد في بنائه ابن ابي عامر من تراب نقله على
النصارى على رووسهم مما هدم من كنايس بلادهم وقد سمعت ايضا عن قنطرتها العظمى وكثرة ارحي واديها
يقال انها تنيف على خمسة الاف حجر وقد سمعت عن كتبانيتها وما فضل الله به تربتها من بركة ما تنبت
فيه من القمح وطيبه وفيها جبال الورد الذي بلغ الربع منه جرات الى ربع درهم وصار اصحابه يرون الفضل
لمن قطفه ويدع ما يحوزه منه ونهرها ان صغر عندها فمن عظمه عند اشبيلية فان القوارب تسير هنالك
وتقطع غدره ويوجد معنى اخر وحلاوة اخرى وزيادة انس وكثرة امان من الغرق وفي جوانبه من
البساتين والمروج ما زاده نضارة وبهجة • واما جيان فانها لبلاد الاندلس قلعة اذ هي اكثرها زرعا
وامرها ابطالا واعظمها منعة وكم رامها من عساكر النصارى عند فترات الفتن فروها ابعد من
العيوق واعز منالا من بيض الانوق ولا خلت من علماء ولا من شعراء وهي التي يقال لها جيان الحرير لكثرة اعتناء
باديتها وحاضرتها بدود الحرير ومما يعد في مفاخرها ما بيسا سر احدى بلادها من الزعفران
الذي يسفر برا وبحرا وما في ابدة من الكروم التي كاد العنب فيها لا يباع ولا يشترى كثرة وما كان بابدة
من اصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة فانهن احذق خلق الله باللعب بالسيوف
والدك واخراج القروي والمرابط والمتوجه • واما غرناطة فانها دمشق بلاد الاندلس ومسرح
الابصار ومطمح الانفس ولها القصبة المنيعة ذات الاسوار الشامخة والمباني الرفيعة وقد اختصت
بكون النهر يتوزع على ديارها وحماماتها واسواقها وارحاها الداخلة والخارجة وبساتينها وزانها الله

King Saud University
Copyright King Saud University